٦ ـ دانتى أليجييرى

والكوميديا الإلهية

وأبو العلاء المعرى ورسالة الغفران

تتمة البحث

الإسراء والمعراج

اختلف المؤرخون ومفسرو القرآن الكريم فى هذه الأساطير الكثيرة التى زخرف بها كل من حادثى الأسراء والمعراج ، ولم يثبأ الثقات منهم أن يتورطوا فى تصديق كل ما عُزِى الى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قاله ؛ ورجح بطلانَ هذه الأحاديث اختلافُ رواياتها بالزيادة والنقصان فى مختلف كتب التفاسير والسِّيَر . وقد وقف منها الامامان — البخارى ومسلم — موقفاً حازماً فلم يُثبتا فى صحيحيهما إلا هذا الحديث المشهور القصير الخاص بزيارة جبريل للنبى وركوبه (ص) البراق ثم الأسراء به فروره ببعض قوافل العرب ثم بلوغه بيت المقدس ، فصلاته بالأنبياء ثمة ، فعروجه إلى السماء الأولى وفيها فلان النبى وإلى الثانية وفيها فلان ، حتى يبلغ سدرة المنتهى

ولعل أقدم المصادر التى أوردت زيادات على حديث البخارى ومسلم ، ويبدو عليها أثر شديد من الصنعة والتكلف ، هى سيرة ابن هشام التى نسج على منوالها كتاب السير الآخرون . وقد رفض صاحب الكشاف أن يثبت فى تفسيره شيئاً من تلك الزيادات ، ولكن مع الأسف الشديد ، تورط مفسرون أجلاء مثل الطبرى والألوسى وابن كثير وغيرهم فرووا كل ما وضع الوضّاعون وزخرف المبطلون من حواشٍ وتهاويل عن الأسراء والمعراج ثم تركوا كل ما رَوَوْا مَن غير ما تمحيص ولا تزييف ، فكان عملهم تزكيةً سامتة لهذه الترهات التى لم تنفرج شفتا الرسول عن حرف واحد منها

ولقد بدا لنا ونحن نقارن ماجاءت به أسطورة المعراج الموضوعة مما جاء فى كوميدية دانتى ؛ ولا سيما فى الجزء الخاص بجهنم فى كل منهما ، أن يكون هؤلاء الوضّاع قد سطوا على خيال دانتى نفسه فانتحلوه لحادث المعراج ، ورَوَوْا ، وليتبوأوا مقعدهم من النار ، عن الرسول الكريم هذا الحديث الطويل عن فئات المجرمين الذين رآهم يتعذبون بمختلف ألوان العذاب فى دركات السعير ... خيل إلينا أنهم سطوا على دانتى ، ولكنا عدنا فوجدنا هؤلاء الوضاع يسبقون دانتى بمئات السنين ، فأسقط فى أيدينا ، وأوشكنا نقر القائلين بأن دانتى تأثر فى كوميدياه بأسطورة المعراج الملفقة ، بعد إذ نفينا ذلك ، وهنا ، رأينا المخرج صعباً ، وفى فشل البحث الذى أخذناه على عاتقنا هوان علينا ؛ ولكنا ما كدنا نلخص الجزء السادس من الأنيد للشاعر اللاتينى الخالد ڤرجيل حتى حصحصت الحقيقة أمام أعيننا ، وحتى أيقنا أن كلا من دانتى ووُضاع الأحاديث الملفقة عن حادث المعراج كَلٌّ على ڤرجيل وعيال على خياله الخصب وتصوُّره العميق

والمحققون من علماء المسلمين والمستشرقين على السواء على أن الترهات الكثيرة والزخارف الباطلة التى نقرؤها فى غضون كتب التفسير (كالخازن وغيره) هى إسرائيليات انتقلت إلى الاسلام باعتناق بعض اليهود لهذه الحنيفية الغراء ، فهم عند ما قرأوا فى القرآن أسماء أنبيائهم وبعض الحوادث المشهورة الواردة فى كتبهم راحوا من تلقاء أنفسهم يقصون قصصهم الاسرائيلية على أنها إسلاميات يقرها كتاب الله وحديث رسول الله ، ومن هنا هذا البهرج الكثير الذى دخل على القصص الاسلامى ، ومن هنا أيضاً ضياع الحقيقة بين ما قال الرسول الكريم وما لم يقل

على أننا لا ندرى لماذا يكون كل مادخل على الرواية الاسلامية اسرائيليا ولا يكون أشمل من ذلك ؟ لم لا يكون هنديا مع من اعتنق الاسلام من الهنود ، ومصريا مع من اعتنق الاسلام من المصريين ، وفارسيا مع الفرس وأشوريا مع الأشوريين ويونانيا مع اليونان ، ثم لم لا يكون لاتينيا مع من اعتنق الاسلام من أمم البحر الأبيض المتوسط ، وفيها أسبانيا وصقلية وجزر كثيرة من جزر هذا البحر ؟ !

لقد ازدهرت الثقافة الاسلامية فى فارس والعراق والشام

ومصر وتونس والمغرب والأندلس وصقلية ، بل هي كانت تمتد إلى أبعد من ذلك ، إذ أثبت المحققون أنها كانت تغزو فرنسا وسويسرا وبعض المدن الايطاليـة ، ولم تكن ثقافة إسلامية بحتة ، بل كانت خليطاً عجيباً من أشتات الثقافات ، كانت مزيجاً أقله إسلامي وأكثره محلي بحسب الأقليم الذي تنشئ فيـه . ومن الارهاق أن تفرض الثقافة الاسلاميـة نفسها على الأمم المغزوة دون أن تتأثر هي بثقافات تلك الأمم ، ونحن نعلم أن رومة حينما فتحت أثينا عسكريا كانت أثينا تتوثب لفتح عدوتها ثقافيا ، وقد تم لهـا ذلك بأسهل مما تم الفتح العسكري لرومة فأصبح الأثينيون أساتذة للرومان في بضع سنين ، ولم يبدأ العصر الروماني الذهبي بالفعل إلا بعد أن تلقحت أذهان الرومان بهـذا اللقاح اليوناني العجيب

والمسلمون أيضاً . فعصرهم الذهبي لم يكن عصر النبي صلى الله عليه وسلم ولا عصر الخليفتين أبي بكر وعمر ، ولا عصر معاوية أو عبد الملك بن مروان أو الوليد بن عبد الملك ، بل كان ذلك في عصر هرون وابنـه المأمون في الشرق ، وفي عصر عبد الرحمن الناصر في الغرب . أما العصور الاسلامية قبل ذلك فقد كانت عصور دعوة وجهاد في سبيل الله وتعليم المسلمين الجدد تعاليم الدين الجديد ، فلما استقر له الأمر في البلاد المفتوحة جاء دور الحضارة وجاء دور التفكير الهادئ ، وجاء دور التلقيح للذهن الاسلامي بثقافات الأمم المختلفة التي دخلت زرافات في دين الله ، فأثرت في الآداب الاسلامية كما أثر الاسرائيليون سواء بسواء

وقد رجعنا الى عشرات من المصادر علنا نوفق الى أصل لأحاديث المعراج الملفقة في المـائة سنة الهجرية الأولى فلم نهتد الى شيء منها ، وأكبر ظننا أنها لم تكن قد لفقت بعد ، وأكبر ظننا أيضاً أن الأمم اللاتينية لم تكن قد تحرشت بالمسلمين في هذه الفترة ... أما بعد أن عرفت هـذه الأمم الاسلام والمسلمين فقـد راجت السير عن المسلمين وعن نبي المسلمين وعن الفتوح الاسلامية ، وقد ازدحمت هذه السير بالأخيلة الرائعة والقصص الممتع الجميل الذي يستحيل أن يكون إسلاميا بحتا ، لأن نظرية رومة (فتحت أثينا عسكريا وأثينا فتحت رومة ثقافيا) لابد أن تنطبق على المدينة من جهة ، وعلى فارس والشام ومصر والأندلس من جهة أخرى . وما أشبه الرومان بالعرب وما أشبه الأعاجم بالأثينيين في تلك العصور السحيقة المتقادمة !

ولسنا نزعم أن وضاع الأحاديث الملفقة عن حادث المعراج قد انتحلوا ما جاء في الأنيد اعتباطاً ، بل هم انتحلوه كما فعل الأسرائيليون حينما انتحلوا كل ما جاء في كتبهم أو أكثره فزوقوا به القصص الاسلامي . وإن مقارنة سريعة بين الجزء السادس من أنيد فرجيل وبين الروايات التي نَسَّقها وجعل منها قصة المعراج العالم المسلم نجم الدين الغيطي (٩٩٩ هـ) [1] لتجعلك تتأكد صدق استنباطنا ، وتتفق معنا على أن الأدب اللاتيني ، ومنه أدب فرجيل ، قد صبغ ناحية هامة من الأدب الاسلامي لم تكن مزدهرة قبل ذلك . ولولا مخافة الأملال لسقنا لك هذه المقارنة ، فارجع أنت إلى الخلاصـة التي أعطينا كما في العدد السابق للكتاب السادس من الأنيد ، ثم ارجع إلى سيرة ابن هشام أو تفسير الطبري أو قصة المعراج لنجم الدين الغيطي تجد أننا لم نبالغ قط في كلمة مما قلناه

صور تأثر بها دانتي من القرآن الكريم

كانت هزائم المسيحيين المتوالية في الحروب الصليبية والتي انتهت بفشل هذه الحرب تذكي نيران البغضاء والحنق في قلب دانتي على الاسلام والمسلمين ، وقد رأينا كيف بلغ به غَمُّهُ وضيق عطنه أن زج بالرسول صلى الله عليه وسلم وبابن عمه علي وبالسلطان صلاح الدين في جحيمه ، وكيف جعلهم مع الفجار وأهل الفسق والمهرجين في درك واحد . وليس معقولاً أن تنتهي هذه الحرب دون أن تكون لهـا نتائجها من احتكاك الأذهان بين الشرق والغرب ومن إلمام الغرب بشطر كبير عن الاسلام ونبي المسلمين وكتاب المسلمين ، والذي يتلو ما جاء في السور المكية من نذير شديد وأوصاف ممتعة لجهنم ودركاتها لا سيما في سور الأعراف والصافات والواقعة وجزء عم يروعه تأثر دانتي بالقرآن الكريم فيما ذكره في الـ Inferno (الجحيم) ، فبرغم وثوقنا من أنه سار على درب فرجيل في الجزء السادس من الأنيد في هذا الجزء من كوميدياه إلا أننا ندهش لكثير من وجوه الشبه بين ما جاء في جحيمه وما جاء في القرآن من وصف جهنم وأهلها . ونحن

(١) طبعة بولاق منذ ستين سنة

نحيل القارئ هنا أيضاً على السور التي ذكرنا وعلى الملخص الذي عملناه لجحيم دانتي

ولا ريب أنه تأثر أيضاً بالقرآن الكريم في فردوسه ، ولكنه أثر غير عميق ، إذ كان ينهج في جنته منهاج فرجيل في الأنيد ، وبحسبنا ما قدمنا من خلاصات

دانتي والأدب اليوناني

المشهور عن دانتي أنه لم يكن يعرف اليونانية ، ولكن هذا لم يمنعه من الاطلاع على الأدب اليوناني اطلاعاً وإن يكن أبتر قليل الغناء إلا أنه كان ذا أثر كبير في تكوينه الأدبي . ومما لا شك فيه أن دانتي قرأ ما قرأ من أدب اليونان في التراجم التي قام بها مواطنه الشاعر الكبير أوفيد Ovid تلك التراجم الخالدة التي حفظت لنا جانباً كبيراً من أساطير الأغريق وتراثهم الأدبي . ولعل رحلة هرقل ورحلة أرفيوس الموسيقي[1] إلى الدار الآخرة كانتا ذواتي أثر كبير أو قليل في دانتي حينما كتب كوميدياه ، ففيهما وصف بارع للجحيم نسج على منواله فرجيل في الأنيد

دانتي ورؤيا يوحنا اللاهوتي والأدب المسيحي

وإذا كان دانتي قد تأثر بكل ما ذكرنا من هذه الآداب المتفرقة ، فما لا ريب فيه أنه تأثر بالأدب المسيحي عامة ، والعهد الجديد خاصة ، ونخص من العهد الجديد آخر أسفاره (رؤيا يوحنا اللاهوتي) ، فهي رؤيا جميلة حقاً ، وفيها من ألوان الخيال (الخيال الأدبي طبعاً) شيء كثير ، ونحسب أن دانتي قد اقتبس الفصل الخاص ببحيرته في جحيمه من نفس المنظر الخاص بالبحيرة في هذه الرؤيا ، بل نحسب أن الوضّاع الذين لفقوا أحاديث المعراج الموضوعة قد دسوا هذا المنظر في أسطورتهم من رؤيا يوحنا نفسها . بيد أنه ينبغي ألا نغالي في مقدار تأثر دانتي بهذه الرؤيا كما ذهب اليه بعض إخواننا من الأدباء المسيحيين بل ربما كان تأثر دانتي بأخيلة القرآن (نقصد دائماً معنى الكلمة الأدبي) أبعد مدى من تأثره بأخيلة الأنجيل ، لأن القرآن وصف جنة النعيم وشقاء الجحيم بما لا يسمو اليه خيال شاعر مهما تفنن وأبدع ، ولأن دانتي كان يرد بكوميدياه على أعدائه خاصة وأعداء المسيحية من المسلمين في زمانه عامة ، ولذا كان يحسب أنه يحارب بسلاح أعدائه

(١) نكتفي بتوجيه القارئ إلى هاتين الأسطورتين إلى النصف الأول من السنة الثالثة في الرسالة خشية الاسهاب

خاتمة

هذا ما عن لنا أن نقول في دانتي وأبي العلاء ، وشتان بينهما ! شتان بين أعمى المعرة الساخر الملحد الفيلسوف المتفنن القانع بالعدس والفول والتين والخيار من لذائذ الدنيا الخاتلة ، وبين دانتي السني المتدين المتعصب للكنيسة ولو أذلت رومة وطنه ووضعت أنف فلورنسا في التراب ، الساخط على مواطنيه لأنهم حرموه المناصب التي تدر عليه العسل واللبن ، المتبرم بزوجه ، الناقم على أطفاله ، المقلد لغيره في كل خطوة من قصيدته

ليس ضيرا إذن على أبي العلاء ألا يكون دانتي قد قلده ونسج على منواله ، بل الضير كل الضير هو في مقارنة قصيدة دانتي برسالة أبي العلاء ، فلقد كان دانتي عالة على فرجيل في الكوميدية الالهية كما شهدنا ، ولكن أبا العلاء لم يكن عالة على أحد ، بل كان الشاعر ذا الخيال الخصب والفكر الجبار والقلب المتمرد على الأديان وما تقول به من جنة ونار . هذا ولا ننكر أن أبا العلاء كان خاضعاً في رسالته لتداعي المعاني كما ذكرنا في الكلمة الأولى من هذا البحث ؟

د . خ

صدرت الطبعة السادسة من كتاب :

تاريخ الأدب العربي

في جميع عصوره

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

وهذه الطبعة تقع في زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط ، وتكاد — لما طرأ عليها من الزيادة والتنقيح — تكون مؤلفا جديداً

الثمن ٢٠ قرشا عدا أجرة البريد